الفصل الثامن

التكتة الشعبية

ليس هناك زمن من الأزمنة أو مكان من الامكنة لم تعش فيه النكتة ، سواء فى الحياة أم فى الأدب • واذا كانت النكتتان الأدبية والشعبية ترجعان الى أصول نفسية واحدة ، فان النكتة الشعبية ــ لأنها تنبع من صميم الشعب ــ فى وسعها أن تحدد المكان والزمان اللذين نشأت فيهما •• فنحن نستطيع أن نميز النكتة الانجليزية من المصرية ، والنكتة القاهرية من غيرها من نكات البلدان العربية • وبالمثل يمكننا أن نميز النكتة القاهرية زمن الاحتلال من نكات عصرنا الحاضر • كما أن نكات جماعة الطلبة تتميز عن نكات جماعة العمال وهكذا ••

فالنكتة نتاج أدبى ينبع من دافع نفسى جمعى ، شأنها شأن الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية والأسطورة واللغز الى غير ذلك • ولكنها تتميز عن هذه لأشكال بأنها قد تعين فى يسر على تحديد الزمان والمكان اللذين نشأت فيهما •

والنكتة خبر قصير فى شكل حكاية ، أو هى عبارة أو لفظ يثير الضحك • ولكن ما اللذى يميز النكتة عن الكلام العادى ؟ لكى نجيب عن هذا يتحتم علينا أن نتعرض للمشكلة اللغوية فى النكتة • فاللغة بصفة عامة اما أن تكون وسيلة لنقل خبر أو لادراك شىء • ولهذا فانه يتحتم أن يكون كل جزء من الكلام ممتلكا لخاصية الفهم • فاذا حدث أن استخدمنا عبارة أو كلمة تخفى معنى آخر غير المعنى الظاهرى ، فانه ينشأ حينئذ ما نطلق عليه المعنى المزدوج • وبعبارة أخرى فان الهدف الاخبارى المباشر للغة ينتفى عنها • فاذا انتهى الأمر بادراك المعنى الخفى فان المشكلة اللغوية تكون بذلك قد انتهت بالحل عن طريق ادراك مغزى كلام المتكلم • ويمكننا أن نلخص ذلك

فنقول ان النكتة تلاعب بالألفاظ من شأنه أن يصنع معنى مزدوجا ، فهناك المعنى الظاهرى الذى لا يثير الضحك اذا استعمل استعمالا مألوفا ، والمعنى الخفى الذى لا يثير الضحك الا لكونه مرتبطا بالمعنى الأول • ومثال ذلك أن يهوديا سأل يهوديا آخر كان يقف أمام حمامات شعبية وقال له : هل أخذت حماما ؟ فأجاب فى شدة : والله ما فعلت ، ولم ؟ فأجاب : لقد دخلت الحمامات فوجدت حماما ناقصا • ولعل هذا المثال يوضح لنا التعريف الذى أشرنا اليه • فكلمة « أخذت حماما » تحتوى فى هذا المثال على معنيين : المعنى الظاهرى المألوف وهو « استحممت » . وهو التعبير المألوف للاستحمام . والمعنى الخفى وهو « سرقت حماما » • ولو أن اليهودى الأول سأل الثانى : هل استحممت ؟ لما كان هناك تلاعب فى الألفاظ وبالتالى لم يكن هناك ما يثير الضحك • وكذلك لو أن اليهودى الأول سأل صديقه عما اذا قد سرق حماما ما كان هناك منذ البداية معنى مزدوجا • ثم اننا نلاحظ فى نهاية الأمر أن الكلام ظل غير مفهوم الى أن وجد الحل فى نهاية الحوار عن طريق ادراك المعنى المزدوج •

فالنكتة تركيبة لغوية معقدة • والنكات كلها بصفة عامة تهدف الى هدف واحد وهو الوصول الى الحل اللغوى الذى يدركه السامع • وليست وسيلة النكتة فى ذلك هى وسيلة اللغة المألوفة التى تهدف الى الوصول الى الفهم عن طريق التسلسل المنطقى ، وانما تتقطع فى النكتة سلسلة التعبير المنطقى ، ومع ذلك فهى تهدف من خلال المعنى المزدوج الى ادراك العبث أو المحال أو ادراك متناقضات الحياة ••

* * *

بعد ذلك نتجه الى سؤالنا التقليدى وهو : ما الباعث على خلق النكتة ؟ أو بعبارة أخرى ما مجال الاهتمام الروحى الذى يدعو الى خلق النكتة ؟ هنا نود أن نذكر القارىء بالحكاية الخرافية بصفة خاصة ، ونقارن بينها وبين النكتة من حيث مجالها النفسى • ذلك أن هذين النوعين ، وان بدا أنه لا صلة لأحداهما بالآخر الا أنهما يلتقيان معا من زاوية ما • فالحكاية الخرافية تغير أوضاع عالمنا اللا أخلاقى

كما يطمح اليه الانسان الشعبى ، فاذا بالضعيف والفقير يمتلكان القهوة كلها بدلا من القوى والغنى ، أى أنها تهدف الى الغاء الواقع التراجيدى الذى نعيشه • أما النكتة فهى لا تلغى هذا الواقع وانما تسخر منه • فعالم النكتة هو عالم المرح والسخرية ، وذلك فى مقابل عالم الجد والصرامة الذى يعيشه الناس • وطبيعة عالم المرح أنه يلغى العلاقة بين التوقع والنجاح وبين الممكن والواقع ، وبين الشىء وما يحيط به • وهو يلغى هذه العلاقة بأن يخلع عليها طابع اللعب والسخرية ، وبأن يجعل الانسان يقف على بعد منها • والنكتة تختلف عن أنواع الفكاهة الأخرى فى أن كل ذلك يتحقق فى النطاق الذهنى وحده • ويمكننا بناء ذلك الكشف أن نقول أن النكتة مرح ذهنى ، ومن أهم خصائصها ذلك الكشف المفاجىء عن المعنى المزدوج • سألت مرة زوجة زوجها قبل أن يخرج الى عمله وقالت : هل أصنع لك قدحا من القهوة ؟ فأجاب : لا والا انتابتنى اليقظة فى أثناء عملى • والنكتة هنا تتمثل فى تلك اللمحة الخاطفة التى تكشف عن المعنى المزدوج • وهو معنى لا يتمثل فى هذه المرة فى اللفظ كما هو الحال فى المثال السابق ، وانما يتمثل فى عبارة بأكملها • والمعنى الظاهرى هو أن شرب القهوة يعقبه اليقظة • ولكن المعنى الخفى هو الذى يحمل السخرية من طبقة الموظفين الذين يجدون فى وقت العمل فرصة للخمول •

ولكننا نعود فنتعمق روح الشعب أكثر من ذلك فنبحث عن مصدر السخرية • وهنا نعود فنربط النكتة والحكاية الخرافية بعد أن فصلنا بينهما من حيث المجال النفسى الباعث على خلقهما • بل اننا نربط بين النكتة وبين سائر أنواع التعبير الأدبى الشعبى • ذلك أن أنواع التعبير الأدبى الشعبى وان بدت فى ظاهرها متعددة ، الا أنها فى الحقيقة تنبع من باعث واحد هو حب الشعب للحياة واقباله عليها والرغبة فى أن يعيشها كيفما تكون • ولا يعنى هذا أن الشعب يشعر بأمن تام فى حياته ، بل انه على العكس يشعر دائما بتهديد قوى معادية لحياته • وقد تتمثل هذه القوى فى حياته الواقعية أو فى حياته المتخيلة ، حياته المرئية أو حياته غير المرئية • ولكنه لما كان

متفائلا بحياته ، مقبلا عليها ، راضيا بمصيره فيها ، فانـــه يجتهد فى آن يدفع تلك القوى عن حياته بوسائله المتعددة • فهو يتصور الجـــن والأشباح والأرواح الشريرة مهددة لحياته ، ولكن تعاويذه وطقوسه السحريه من شأنها أن تدفع عنـــه كل ذلك • وهو يحكى هـــذه الطقوس بدلا من أن يقوم بادائها فينشأ عن ذلك شكل ادبى هـــو الأسطورة • ثم هو يحس بقوى معادية لحياته من نوع آخر . تلك هى العواطف الانسانية الرخيصة مثل الحقد والكره وسيطرة الغنى على الفقير والقوى على الضعيف ، ومن ثم فهو يعمل على تنمية القوى الدافعة لحياته مثل الحب والصبر على الـــكفاح والسمو بالمثل الانسانية • وهو يعبر ذلك مرة أخرى فى حكاياته الخرافية والشعبية حيث ينتصر دائما الضعيف على القـــوى والفقير على الغنى ، وحيث يدفع بالحياة بطل تتجمع فيه الأخلاق الانسانية السامية • وهـــو يشعر بالملـــل يتسرب الى حياته . فيسعى فى أن يشيع فى حياته البهجة والأمـــل ، فيحتفل بأعياده ومواسمه ويرعى تقاليده ، ويحرص على أداء كل ذلك فى كل مناسبة • ثم هو أخيرا يعيش حياته الواقعية فى عمق ويحس بأحداثها الساخية وبمتناقضاتها البالغة ، ولكنه يرضى بالمصير المقدر ، وهـــو يفلسف ذلك فلسفة تريح نفسه وذهنه معا • واذا ما شـــعر بعبء التفكير فانه يرغب فى الضحك اما من أجل الضحك نفسه ، واما من أجـــل السخرية بما ليس له قبله حول ولا قوة (١) » •

وهكذا نرى أن الشعب ، بدافع قواه الخالقة ، يخلق الشـــكل الأدبى الذى يخفف عن نفسه بعض تصوراته المفزعة ، وكأن عمله هـــذا بمثابة المأمن الذى يلجأ اليه من فزعه • وكل صنوف التعبير الأدبى الشعبى انما تهدف لى تأكيد وجود الانسان الشعبى فى هـــذا الوجود المليء بالعناصر المهددة لحياته ••

على أننا اذ كنا قـــد ربطنا بين النكتة وبين سائر الأنواع الأدبية

Gerda Grober : Uber Humor und Witz in der Volkskunde.
S. 445 (Zeitschrift fuer Volkskunde. B. 55 1959.

الشعبية من حيث انها تهدف جميعا الى تأكيد وضع الانسان فى الحياة وازاحة المتاعب النفسية عنـــه • فاننا نعود فنبحث النكتة فى ضوء ما تتميز به عن سائر الأنواع الأدبية الشعبية الاخرى • وهـــذا الشىء الذى تتميز به النكتة يتمثل فى محتواها الفكرى وفى فنيتها معا • ونهـــذا فانه ليس من الجائز على الاطلاق أن نفصل بين المحتوى الفـــكرى للنكتة وبين فنيتها ، فهما يرتبطان معا تمام الارتباط ، ويـــكونان الخصائص الأساسية للنكتة • ويمكننا أن نلخص هـــذه الخصائص فيما يلى :

أولا : ترجع الأهمية الأولى للنكتة فى شكلها التعبيرى وسوف نشرح ذلك عند ما نتحدث عن كيفية تكوينها •

ثانيا : الأثـــر النفسى الذى تحدثه النكته هـــو المتعة الجمالية فحسب ، والمتعة الجمالية من وجهة نظر علماء الجمال هى تلـــك التى تعـــارض المتعة المادية • فاذا كانت المتعة المادية هـــــى الاحساس باسعادة ازاء موضوع يسد احتياجات الحياة . فان المتعة الجمالية هى الاحساس بالسعادة فحسب ، دون أن يكون هـــذا الاحساس هادفا الى تحقيق غرض مادى فى الحياة • ومن هنا كانت النكتة فوق كل نقد، لأنها لا تتعرض لمشكلة بطريقة مثيرة للنقد ، وانما هى تســـخر من موضوع بطريقة تتلاشى معهـــا الروح النقدية لدى كل سامع ، فى الوقت الذى ينشأ لديه الاستعداد المفاجىء للضحك ••

ثالثا : النكتة تسد احتياجات دوافـــع نفسية خفية تنشـــــأ عن احساس الانسان بعقبات تحول دون تحقيق رغباته الكاملة • وربمـــا تمثلت هذه العقبات فى مجرد الاحساس بتوتر نفسى مصحوب بتهديد وخوف يحملان الفرد تبعات نفسية اذا هو رضخ لهـــا • وربما تمثلت هذه العقبات فى التربية والقيود الاجتماعية التى يخضع لهـــا الفرد • ويمكننا أن نقول بتعبير آخر ان النكتة تحرر من ضغط نعانيـــه ومن نفـــوذ يسيطر علينا • ذلك أن رغبـــات الانسان تكسبه الحق فى أن يسلك مسلكا معـــاديا ضـــد القيم الأخلاقية التى يرى أنها تتسم بالاسراف وعـــدم المبالاة بنفسيته • وبالمثل فانه كلما كانت الأوضاع

الاجتماعية عاجزة عن تحقيق السعادة الكاملة للانسان فانه لا يستطيع أن يخفى الصوت الداخلى بذات نفسه • ولا يعنى هذا أن المجتمع فى كل زمان ومكان مقصر فى حق الانسان . ولكنه يعنى أن المجتمع لا يمكنه أن يحقق مطالب الفرد جميعها • ولم يبق بعد هذا سوى أن نترك مطالب الانسان غير محققة • ولعل هذا من صالح الفرد والمجتمع معا . لانه يعنى تطور الحياة الانسانية ، كما يعنى قابلية الأوضاع الاجتماعية للتغيير •

وقد نتساءل بعد ذلك ، أليس هناك نوع أدبى آخر من شأنه أن يحقق هذا النوع من المطالب النفسية للانسان ، تلك المطالب التى تقف فى طريقها العقبات الاجتماعية ؟ ونحن نجيب عن ذلك فنقول انه ليس هناك حقا أى تعبير أدبى آخر سواء اكان ذاتيا أم شعبيا يحقق هذا الهدف • ان كل أنواع التعبير الانسانى اما أنها تعرض المشكلة التى يعيشها الانسان ، أو هى تصبو الى خلق عالم خيالى يطمح اليه الانسان كما هو الحال فى الاسطورة والحكاية الخرافية • وفيما عدا ذلك فالخلق لأدبى يقف عند حد اثارة المشكلة وابرازها بوضوح للنفس الانسانية • فاذا عرض الشكل الأدبى المشكلة فى جو من المرح والسخرية ، فان هذا معناه أنه يستعين بالنكتة أو بالفكاهة بصفة عامة فى ازاحة المتاعب النفسية عن نفس الانسان ••

رابعا : الوسائل التى تجلب بها النكتة حالة الاكتفاء النفسى عن طريق خلق جو من المرح تتمثل فى اختيار قائل النكتة الراهنة ، وفى تحميل اللامغزى المغزى كله • وأما عن سبب استخدام النكتة لهذا اللامغزى فهو أن النكتة تنبع من شخص يرغب فى ازاحة المتاعب النفسية عنه • وهذا لا يتحقق الا اذا تحول وعى الانسان دون تمهيد سابق ، من الشىء الكبير الى الشىء الصغير • وهذا التحول المفاجىء ينشأ عنه بدوره استخدام اللامغزى فى ادراك المغزى . وهو السبب الأساسى فى خلق جو المرح والضحك •

خامسا : النكتة تتطلب شخصين على الأقل : راوى النكتة أو مؤلفها ، وسامعها • فاذا لم يستجب هذا السامع للنكتة ، بمعنى انها لم تضحكه ، فان النكتة تتطلب فى هذه الحالة شخصا ثالثا يكون متفقا مع

راوى النكتة فى احساسته النفسية • واما عن السبب الذى من أجله لم تؤثر للنكتة فى الشخص الثانى فهو أن حالته النفسية لم تكن لتسمح للنكتة بأن تؤثر فيها ، كأن تكون النكتة مهاجمة صريحة له ، أو أنه لم يكن قادرا على خطف اللمحة الفكاهية •••

سادسا : ليست النكتة خبرا مباشرا أو نقدا مباشرا . وانما هى عبارة عن تلميحة لشىء خفى • ولهذا ينبغى أن تكون هذه التلميحة واضحة حتى يتمكن السامع من أن يملأ الفجوات من تلقاء نفسه وبسرعة وبحيث ينتهى فهمه للنكتة عند الانتهاء من روايتها •

ويهمنا الآن أن نفرق بين النكتة وبين سائر أنواع الفكاهة • والألفاظ العربية التى تدل عندنا على الفكاهة كثيرة فمنها المزاح ومنها اللمز أو التندر ومنها الحكاية الهزلية • وهناك فى الاصطلاح العامى كذلك القفشة ، كما أن الفكاهة المصرية تشتهر بنوع يسمى المفارقات••

أما الحكاية الهزلية ، فهى تنتهى بما يثير الضحك كما هو الحال فى النكتة ، ومع ذلك فالفرق جوهرى بين النوعين • فالحكاية الهزلية تختلف عن النكتة فى حيزها الزمانى ، اذ أنها تستغرق زمنا أطول من النكتة • والمعروف أن الايجاز يعد من أهم لوازم النكتة ، فان هى طالت فانها تتميع • هذا فضلا عن أن الحل الذى تنتهى اليه النكتة يأتى عن طريق تقاطع خطين ان صح هذا التعبير ، فى حين أن الحل الذى تنتهى اليه الحكاية الهزلية يبرز فى نهاية خط واحد • وطبيعى أن هذا مبعثه اختلاف المجال النفسى الذى ينجم عنه خلق كل نوع •

وبالمثل فان الفرق بين السخرية واللمز جوهرى • فاللمز تهكم بموضوع بعيد عنا ، أى أننا نقف منه وجها لوجه دون أن تربطنا به علاقة عاطفية • أما السخرية فهى نقد لاذع يحمل علاقة عاطفية قوية بين الساخر وموضوع سخريته • والساخر يكون واعيا بسخريته الى درجة أننا نحس بكل ظلال التجربة منذ احساسه بعدم الرضاء حتى مرحلة التعبير عن هذا الاحساس • حقا ان اللمز قد يكون قادحا ، ولكنه لا يشير الا الى ما يحمله الشىء من عيب • وأما السخرية فهى لاذعة لأنها تكشف عن الاحساس العميق بعدم

الاقتناع من ناحية ، وهى تتعرض لنقد الموضوع بطريقة ساخرة من ناحية أخرى •

يحكى أن رجلا متدينا كان يسير وحده يعبد الله ويتعجب من قدرته الخالقة • وكان هذا الرجل عارى الرأس ، يكاد تغطى رأسه بضع شعرات ، وفجأة بال طائر على رأسه ، فرفع الرجل رأسه الى السماء وقال : أشكرك يا الهى أنك لم تمنح البقر أجنحة • فالحل الذى وصلت اليه هذه النكتة متمم لبدايتها ، أى أنه وصل بالتعجب من قدرة الله الى قمته • ولكنه فى الوقت نفسه يكشف عن نقد لاذع من قبل خالق النكتة الذى يبدو أنه بعيد عن ايمان العجائز كل البعد • بل ان بول الطائر على رأس المتدين أثناء استغراقه فى تفكيره ليحمل السخرية كلها •

وهكذا نرى أن النكتة غير الحكاية الهزلية وغير اللمز • كما أن هدفها أعمق من مجرد الوصول الى الحل اللغوى المثير للضحك ، فهى فضلا عن أنها تكشف عن حالة عدم الاقتناع ، تشير الى علاقة نفسية عميقة بين الساخر وموضوع سخريته •

وأما المزاح فهو ينبع من لحظة مرح يعيشها الانسان بقصد التخفيف عن متاعبه النفسية • وقد يصل المزاح الى حد النكتة اذا نجح المازح فى اختيار الألفاظ ذات المغزى المزدوج وفى اصابة المعنى بالتلميح السريع •

وأما القفشة فهى ترجع الى اكتشاف الانسان لعيب فى شخصية يمكن أن تكون موضوعا للتندر • فاذا به يشعر فى الحال بقوة وثقة فى نفسه يدفعانه الى ابراز هذا العيب عن طريق القفشة » وربما كانت كلمة قفشة تكشف هذا المعنى • فهى تقفش شيئا فى انسان يصلح لأن يكون موضوع سخرية •

وقد اشتهر جيل الأدباء فى مصر فى أوائل القرن العشرين بالميل الى التندر والفكاهة • وربما كان أشهر أنواع الفكاهة التى رويت عنهم هى القفشة • فمن ذلك ما روى عن خليل نظير أنه فوجىء ذات يوم

بضيف ثقيل هبط عليه فجأة وقضى عنده عدة أيام • فلما حـان موعد رحيلة مد يـده الى خليل مصافحا ؛ فقال له خليل متبرما : « مـع التلامة يا أخى » •

ومن ذلك ما روى عن الشيخ عبد العزيز البشرى من أنه كـان يجلس ذات يوم مع بعض أصدقائه فمر بهم أحـد باعة المحافـظ • واستوقفه أحدهم ليشترى محفظة ؛ وراح يقلب جميع الأصناف حتى اهتدى الى واحدة أعجبته • ولكنه ما لبث أن ردها للبائع وقال له : ان المحفظـة أعجبتنـى ولكنهـا صـغيرة • وهنـا تدخـل البشرى ورد عليه قائلا : ياأخى ولا صغيره ولا حاجة ؛ هو أنت حتشيل فيهـا ذنوبك ؟

ومن ذلك كذلك ما روى عن الجزار الطروب ؛ المعلم دبشـة ؛ أن سيدة راحت تفتخر أمامه بجمالها وتشبه نفسها بالقمر • فـرد المعلم دبشة عليها وقال لها : « فعلا انت زى القمر تمام ؛ بس فيـه فرق واحـد بينك وبينه • الفرق هو ان القمر أحيانا ينكسف وأنت لأ •

ومن الملاحظ أن مثل هذه القفشات لا بد أنها تحتاج الى الشخص الثالث حيث أنها تعد مهاجمة صريحة لشخص الثانى • ولهذا فانهـا قـد لا تضحكه ، ولكنها لا بـد أنها تضحك الشخص الثالث الـذى يقف بعيدا عن هـذا الهجوم •

وشبيه بالقفشة « الكاريكاتير » ، اذ أنه ينتج كذلك عن احساس بثقة تدفع صاحبها ؛ الذى يمتلك الموهبة الفنية ، الى أن يتخـذ من الشخصية أيـا كان وضعها الاجتماعى موضوعا لفنه • فيبرز الملامح المميزة لها ؛ والتى يمكن أن تكون موضوعا لسخريته •

وأما المفارقات فهى كما يقول الأستاذ أحمد أمين عبـارة عن « الجمع بين الشىء ونقيضه أو ما يبعد عنه ويخالفه » • وذلك مثـل قولهم : « البردان يقلع عريان » • ويقول الأستاذ أحمد أمين كذلك ان هذا الباب يحتوى على ملح كثيرة ، وقـد أكثر منهـا الشيخ حسن الآلاتى فى كتابة « مضحك العبوس » • فمن ذلك قوله : « روح خد لك

مكان فى خان جعفر ، بيع جلة ونيفة وكدب أخضر » • ومثل قوله : « قال لها وحياة جمالك وافتنانك ، قصدى فى الهوى أقلع سنانك »(١)•

ومن النكات التى يحكيها أحمد أمين فى هذا المجال أن رجلا فلاحا خفيف الروح ذهب الى خان جعفر ، وهو سوق مشهورة فى طنطا ، ووقف على دكان من الدكاكين المشهورة بالأقمشة الفاخرة وأخذ يقلب النظر فيها ، فدعاه صاحب الدكان قائلا : « اتفضل يا عمدة » • ولكن الرجل لم يأبه له وذهب الى دكان آخر وفعل ما فعله مع الدكان الأول • فقام صاحب الدكان وشده وقدم له فنجانا من القهوة وسيجارة ،وأخذ التاجر يسأله : « هل تريد جوخ أمبريايل من أجود الأصناف ؟ » فأجاب الفلاح : لا • فقال التاجر : « كشمير صوف معتبر ؟ » قال : «لا» • قال : « شاهى أو قطنى من أحسن صنف ؟»• قال : « لا ، انى أريد طواجن فخار لقلى السمك » • فاصفر وجه التاجر وقال : « يا فلاح يا حمار ، أفى دكان الحرابر والجوخ تسأل عن الطواجن الفخار ؟ » • فتركه الفلاح بعد أن شرب القهوة والسيجارة (١) •

وبالمثل فقد كثر الشعر الذى يحتوى على تلك المفارقات الغريبة، ومنه هذه القصيدة :

الأض أرض والسماء سماء ... والماء ماء والهواء هواء
والبحر بحر والجبال رواسخ ... والنور نور والظلاء عماء
والحر ضد البرد قول صادق ... والصيف صيف والشتاء شتاء
والمسك عطر والجمال محبب ... وجميع أشياء الورى أشياء
والماء قيل بأنه يروى الصدى ... والخبز واللحم السمين غذاء
ويقال ان الناس تنطق مثلنا ... أما النساء فكلهن نساء (٢)
كل الرجال على العموم مذكر ... أما الخراف فقولها مأماء

---

(١) قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية :
(٢) المرجع السابق ص ٣٧٤

ومن أنواع الفكاهة كذلك النادرة .. والنادرة هى الأقصوصة التى لا تطول الى درجة الحكاية الهزلية ولا تقصر الى النكتة . ونوادر جحا لا تخفى على أحد . وليست شخصية جحا موقوفة على المصريين وحدهم فربما كان هناك لكل أمة جحا . فنحن نعرف شخصية جحا التركى وهو ناصر الدين خوجة ، وكذلك جحا الألمانى وهو أولين شبيجل .

ومن النوادر كذلك . تلك التى تحكى أن رجلا ثريا كان يمتلك كلبا يعتز به ويعتبره أعز صديق لديه . وذات مرة خرج الرجل يتنزه مع كلبه فخرج عليه وحش مفترس وكاد يهجم عليه ، لولا أن هجم عليه الكلب فتقاتلا وقتلا معا ، فازدادت معزة الكلب عند الرجل وحزن عليه كل الحزن . ولما شاء أن يدفنه . عمل له جنازة سار فيها كثير من الناس . وشاعت القصة بالبلدة وغضب كبار الرجال وقروا أن يقدموا الرجل للمحاكمة جزاء مساواته الكلب بالانسان . وقدم الرجل للمحاكمة وامتثل أمام القاضى الذى سأله عن السبب الذى دفعه الى ذلك ، فقال الرجل : « انه مستعد لتقبل العقوبة أيا كانت بعد أن يعطيه القاضى فرصة للدفاع عن نفسه . ثم حكى للقاضى كيف أن الكلب كان عزيزا لديه الى درجة أنه أوقف له من ماله خمسة آلاف جنيه وقبل أن يموت الكلب أو صاه أن يعمل له جنازة بمبلغ خمسمائة جنيه . ويمنح الباقى للقاضى . عندئذ اعتدل القاضى فى جلسته وردعليه فى لهفة : « قال ايه المرحوم ؟ » .

وربما أدركنا بعد عرضنا لأنواع الفكاهة المختلفة أنها تختلف عن النكتة بعض الاختلاف . حقا أنها جميعا مستوفية لعنصر المفاجأة الذى يؤدى الى الضحك . ولكن النكتة الحقيقية صنعة دقيقة تحتاج لحيز زمنى محدود . وهى تهدف الى الوصول الى ادراك مفاجىء لبعض مظاهر الحياة التى يعيشها الناس ولا يدركونها بوضوح . ويتحقق هذا عن طريق وظيفتين أساسيتين للنكتةهما المقارنة والمفاجأة . والمقارنة عملية ذهنية تعتمد على ادراك الظواهر المتشابهة والمختلفة والجمع بينها فى وحدة أو أكثر . ومن أجل ذلك يتحتم على الوعى أن يتحرك بين الأشياء الحسية وغير الحسية ، فيحلل طبائعها ومعالمها

ومحتواها وأشـــكالها • ثم تهيىء له قواه التصورية وذاكرته أن يقارن بين المدركات ويجمع بينها فى وحدة جديدة • وعن طريق هـــذا النشاط المركب يكتسب الانسان معرفة فوق المحسوسات والمجردات • واذا كانت المقارنة العلمية تتبع منهجا موضوعيا ، فان المقارنة الجمالية تنبع من الذات التى تكشف عن نواحى التشابه والاختلاف كشفا يؤدى اما الى خلق الانسجام والجمال واما الى ادراك الحقيقة الوجـــدانية • وعملية المقارنة المضحكة شبيهة بالمقارنات الفنية الاخرى • فهى ذاتية مثلها ؛ ولكنها تتميز عنها فى اختيار مجال محـــــدد للمقارنة يرتبط بالموضوع الباعث على الضحك•فخالق النكتة شانه شأن أى فنان،تطرح أمامه مجالات من الاختيار لا حصر لها ؛ مبتدئة من أدنى المحسوسات الى أعلى المدركات • ولكنه يتميز عن أى فنان آخـــر فى أن عقله يعمل فى سرعة مذهلة ، ولا بد أن تنتهى به المقارنة الى نتيجـــة غير متوقعة • فاذا انتهت بذلك ، فاننا نفاجأ على التـــو • فليس المهم اذن أن تمتلك الذات المقدرة على المقارنة فحسب ؛ بل يتحتم أن تمتلك المقدرة على خلق عنصر المفاجـــآت • ذلك أن المفـــاجـــأة هـــى الجسر الـــــذى يقع بين الذات القادر على اثارة الضحك ؛ وبـــــين الشىء الباعث على الضحك ••

فخالق النكتة اذن يمر بتجربة معينة أطلق عليها اسم التجربه لضاحكة (١) • وتبدأ هذه التجربة بحالة من اليقظة محـــرره بذكاء الفرد الخالق ، وبثروة ادراكه وتصوره • وكل هـــذا يولـــد لخلق حالة من التوتر عنده تدفعـــه الى الاحســـاس العميق بالشىء المثير المحزن من ناحية ، والى الرغبة فى المرح من ناحية أخـــرى • اذا كان كـــل توتر يكون محـــــررا دائما باحساس بالتهديد ، فان الانسان فى اللحظة التى يشعر فيها بتهديد ضد الأنا ، ينشأ عنده ـــ كرد فعـــل ذلك ـــ احساس بالرغبة فى الانطلاق •

فى هذه اللحظة النفسية يكون هناك موضوع يثير الملاحظة ، وحالة من التوقع نتيجة لامتلاكه لبعض الخصائص المحددة • وتتحدد هذه

Wedner R. Schweize r: Der Witz. S. 37, 38. Munchen 1964.

الاثارة بقوانين فكرية سابقة عليهـا ، وبتجارب سابقة ، وميل لمراقبة الموضوع مراقبة ليست بالمعادية ، مصحوبة بالاحساس بالتهديـد ، وبرغبه فى التفكير ، وهنا يقارن صانع النكتة بين فكرته والواقع المدرك ، كما يرى الفرق الجوهرى بينهما ، فاذا به يدرك لتوه تعارضـا • وفى لحظه الوعى المفاجىء بهذا التعارض يصعـد جوهر التجربة الضاحكة الى القمة متمثلا فى خلق عنصر المفاجأة • فاذا لم يكن ادراك هـذا التعارض مفاجئا ، بل سار فى خطوات بطيئة ، فاننا لا نسـتطيع فى هذه الحالة أن نتحدث عن عنصر المفاجأة أو عن التجربة الضاحكة بصفة عامة : ثم يتبع المفاجأة الاحساس برغبة فى المرح وأول سبب يبعث على هذا الاحساس هو التحول الداخلى المفاجىء لادراك حقيقة بعينهـا ، أى ادراك جزء من الواقع • وثانى هذه الأسباب هو التاكـد من أن هذا الادراك لايسىء الى أحـد الامر الذى يـؤدى الى الاحسـاس بالثقة • وما أن تنتهى المفاجأة بخلق جـو من المرح حتى يجمع خالق النكتة أو راويها بالمستمع مجال واحـد من التفكير والاحساس ، واذا بالمستمع يدرك بعض مظاهر الحيـاة ادراكا يقظا جديدا غير ما كان يتوقعه ، واذا باحساس بالصحة والرضاء فى النهايه يعم الجمع •

وهكذا نرى أن النكتة تهدف بسخريتها الى هدف ايجابى • كمـا أنها تعد ضرورة لازمة لحياتنا وفكرنـا • فحياتنا وفكرنا يسيران بغير انقطاع فى حالات من التوتر ، توتر بداخلنا وتوتر بخارجنا • فاذا كان التوتر والاجهاد مهددين بأن يصبحا اجهادا وتوترا بالغين ، فاننا نحاول فى هذه الحالة أن نقلل من درجتهما بأن نستعين بوسيلة تؤدى بنا الـى حالة الاسترخاء • وأفضل هذه الوسائل التى نستعين بهـا وربما كانت الوسيلة الوحيدة ، هى النكتة • ولعل هذا هو السر فى أن النكتة ابداع فنى يعيش فى كل زمن ومكان •

ولما كانت النكتة مرحا ذهنيا ، فانها تتطلب نشاطا ذهنيا من نوع خاص • فلا يمكن أن تنشأ النكتة بين طبقـات الشعب الساذجـة ، وانما تنشأ بين الطبقات التى تعيش الحياة فى أعمق أعماقها ولهـذا فنحن نعضد النظرية التى تقول بأن النكتة الشعبية لا تنشأ فى الريفة وانما تنشأ بـين الطبقات الشعبية التى تعيش فى المدينة • وقـد نتهم،

بناء على ذلك ، بأننا نحصر مجال الانتاج الأدبى الشعبى فى طبقة دون أخرى • وليس هذا فى الحقيقة هو ما نهدف اليه ، انما نود أن نؤكد أن بعض أنواع الانتاج الأدبى الشعبى ــ وبخاصة ذلك الذى يتطلب خلقا وابتكارا على الدوام ــ يتطلب ذكاءا فطريا وأسلوبا فى الحياة لا يعيشه كل فرد شعبى • واذا كنا قد استبعدنا نشأة النكتة فى القرية فليس معنى هذا أن كل فرد يعيش فى المدينة قادر على خلقها كذلك ، فقد يكون أحد أفراد القرية قادرا على خلقها • ولكن هذا الفرد لا بد أنه يعيش الحياة بوصفها كلا ، بأسلوب يختلف عن أسلوب الفلاح العادى • ولا بد أن نفترض كذلك أن جو المدينة ليس بغريب عليه ، وانما هو يعرفه ويعيشه بين الاونة والاخرى • وعلى ذلك فمرد الانتاج الشعبى الى الفرد الشعبى • وهذا الفرد لا يعيش حياة ذاتية بعيدة عن المجموع وانما يعيش حياة شعبية صرفا• وهو بما له من نشاط ابداعى خلاق يخلق الكلمة التى سرعان ما تلقى هوى بين أفراد الشعب جميعه ، اذ تكمن فيها روحه وتجاربه ومشكلاته ••

أنواع النكتة :

أولا : هناك النكتة التى تسخر من مجموعة من الناس لا بسبب عيب شخصى يكشف عنه صاحب النكتة كما هو الحال فى القفشة ، ولكن بسبب موقفهم ازاء موضوع يهم الجميع • وربما كان أحدث ما ظهر فى هذا المجال نكتة صلاح جاهين التى يسخر فيها من هؤلاء الذين يهاجمون العامية ، بخاصة بعد أن جهر الأستاذ عزيز أباظة بهذا الرأى فى حفل لعيد العلم ، وكان ذلك فى شهر رمضان • فالفلاح يقول لزميله : « اوعى تفتكر ان الكلام بالعامية يخليك فاطر » • وقد يبدو أن الربط بين العامية والفصحى من ناحية ، وبين الصيام والافطار من ناحية أخرى ربطا لا معنى له • ولكنها الخاصية الأولى للنكتة ، وهى أنها تخلق المغزى من اللامغزى كما سبق أن أشرنا • فالصوم والتمسك بالفصحى يرتبطان معا بوصفهما أساسين من أسس قوميتنا العربية الاسلامية • وقد يظن أن اهمال التمسك بالفصحى هدم لاحدى أسس هذه القومية يؤدى الى هدم أهم

دعائمها وهـو الدين • والنكتة فى ظاهرها تنفى ذلك ؛ وهى فى باطنهـا تحمل سخرية بالغة من هـذه الدعوى •

وربما استطعنا أن نطبق أبراز معالم النكتة على هـذا المثال • فالمقارنة والمفاجأة عنصران أساسيان كل الوضوح فى هذا المثـال ، وهما العاملان الأساسيان لاثارة الضحك كما ذكرنا • هذا فضلا عـن أن هذا المثـال يرينا كيف أن النـكتة سلاح قوى يحمى صـاحبه ضد النقد • فليس من المعقول أن ينبرى الـكتاب ليردوا على نـكتة صلاح جاهين ويدافعـوا عن رأيهم المعارض لرآيه ، فى حين أنهـم يثورون لأدنى مقال يكتب فى هذا الموضوع •

والى هـذا النوع من النكات تنتسب نكات الحموات المشهورة • فمثل هـذه النـكات لا تعرض لأشخاصهن وانما تسخر من موقفهن الاجتماعى المعروف •

ثانيا : النكتة التى تسخر من غبـاء الانسان ومن موقفه السلبى فى المجتمع • فلكل مجتمع جانبه السلبى وجانبه الايجابى • والانسان بطبيعته يميل الى الجانب الايجابى ويطمح اليه ؛ فى حـين أنه يسخر من الجانب السلبى • فنحن لا نسخر من الشهامة والمروءة ، وانما نسخر من الجبن ومن عـدم المروءة • ولا نسخر من الذكاء واتزان الشخصية، وانما نسخر من الغباء ومن الشخصية غير المتماسكة • ولا نسخر من السخاء وانما نسخر من البخل وهكذا •

ولعل هذا هو السبب فى كثرة النكات التى تروى عن الحشاشين والسكارى وعن أثرياء الحرب وأغبياء الناس • فـكل هؤلاء انمـا يمثلون جانبا سلبيا فى المجتمع لا يطمح اليه أحـد •

ومن أمثلة هذه النكات ما يحكى عن أحـد الفلاحين من أنه دخل مع زوجته احدى دور السينما • وبعد وقت أرادت الزوجة أن تقضى أمرا ، فقام معها زوجها وسـارا من مكانيهما حتى نهاية الصف • فتعثر الرجل وداس بقـدمه الضخمة قـدم رجل جالس فى نهـاية

الصف دون أن يعتذر له • وتضايق الرجل وقرر ان عاد الرجـــل ليوبخنه • وفجأة عاد الفلاح مع زوجته ليدخلا مرة أخرى • وما ان وصلا اليه حتى سأل الفلاح الرجل عما اذا كان هو بعينه الذى داس قدمه • وسر الرجل وظن أن الفلاح سيقدم اليه الاعتذار ولكنه فوجىء بالفلاح ينادى على زوجته ويقول لهـا : « تعـالى يا حميدة . الصف بتاعنا أهوه » •

ثالثا : نـكات المحرمات • ان كل فرد لا بـد أنه يحتفظ بسر بداخله • وهو لا يود أن يبـوح به لانـه ربما أشـار الى نقطة ضعف فيه ؛ أو لان القيود الاجتماعية تقف حائلا بينه وبين افشائه • على ان هنـاك لحظات يشعر فيها الانسان بضغط نفسى يتهـدده • وهـو يشعر فى الوقت نفسه بدافع نفسى آخر يسعى لازالة هذا الضغط • ورغم قـوة هـذا الدافع النفسى الاخير ؛ فانه ليس من اليسير على الانسان ان يعبر صراحة عمـا يتنافى مع الاوضـاع الاجتماعيـة والخلقية • ولم يبق فى وسعه بعـد ذلك سـوى ان يستخدم التلميح الذكى المصحوب بالمـرح الذى يؤدى به الى حالة الانطلاق النفسى •

فى مثل هذا الجو النفسى تنشأ النكات الجنسية والنكات السياسية وكلا النوعين اشتهر بهما المصريون فى كل زمان • ولا يقتصر أثر هـذه النكات على قائليها ، أعنى أثر الانطلاق النفسى الذى تحدثه . ولكنها تحدث مثل هذا الأثر لدى السامع • ومهما تكن درجة تزمت السـامع ومحافظته فانه يستجيب لمثل هذه النكات ويضحك مع الضاحكين • يقول الأستاذ العقاد فى كتابه « جميل بثينه » « فمنذ القـدم والقيـود التى تفرضها العادات على الرجال والنسـاء بما يطاق ومالا يطاق ، ومنذ القدم والعرف مضطر الى كثير من الاغضاء والتعامى عن تلك القيـود • فهى موجودة ومفتاحها موجود ؛ ولا يزال القيد منها مقرونا بمفتاح • فاذا حجرت العادات من ناحية ، جاءت الفنـون فتسمحت من ناحيـة أخرى • وقد يغض الرجل المتـدين بصره اذ مرت به حسنـاء يخشى فتنتها ؛ ولكنه يسمع بينا فى المغـزل وهو غاض عينيه فـلا يغلق دونه

أذنيه (١) » • وهذا ما يحـــدث تماما مع نكات المحـــرمات ، فان الكبت النفسى والقيود الأخلاقية والاجتماعية تدفع الانسان دفعا لا شعـــوريا الى الاستماع اليها والاحساس بالمرح بعد سماعهـــا •

ولا نـــود أن نختتم بحثنا عن النكته قبل أن نشـــير الى نظـــرية فرويد فى علاقة الحلم بالنكتة • فقد حاول فرويد ، جريا وراء منهجـــه النفسى المعروف ، وهو البحث عن الدافع لأى مسلك انسانى فى منطقة اللاشعور ، حاول أن يرد الدافع النفسى لقول النكتة الى الدافع النفسى الذى ينجم عنه الحلم • كما حاول أن يقرن بين النكته نفسها وبين الحلم فالحلم ينتج عن محاولة التغلب على عنصر الرقابة على اللاشعور ، تلك الرقابة التى تؤدى وظيفتها بنجاح فى أثناء اليقظة • فاذا ضعفت الرقابة فى أثناء النوم تدفق اللاشعور متمثلا فى مادة الحلم • فالحلم يتمثـــل اذن فى عمليتين ، احداهما زحزحة عنصر الرقابة عن اللاشعور ، وثانيهما التركيز على دوافع اللاشعور ، وهما العمليتان الأســـاسيتان اللتـــان تنشأ عنهما النكتة وفقا لرأيه •

وهناك وجه شبه بين الحلم والنكتة يتمثل فى ادراك المغـــزى من اللامغزى • وقـــد سبق أن أشرنا كيف يمكن أن تكون النكتة فى ظاهرها ربطا بين عناصر لا صـــلة بين بعضها البعض ، ولكنها فى باطنها تحمـــل المغزى النفسى البعيد • وبالمثل فالحلم تركيبة فوضوية ندرك مغـــزاها عندما يحلل تحليلا نفسيا •

وطبيعى أن الحلم يختلف عن النكتة فى طريقة العرض • فالحلم أكثر فوضى وأكثر استخداما للأضداد ، بل هو يقلب الشىء الى عكسه••

والخلاصة فى نظرية فرويد أن كـــلا من الحلم والنكتة ينبـــع من هدف واحد ويستخدم نفس الوســـائل ، ولكنهما بعد ذلك يختلفـــان فى طريقة استخدام هذه الوسائل (٢) ••

---

(١) عباس العقاد : جميل بثينة . سلسلة اقرأ : ص ١٨ و ١٩ (دار المعارف)•
Sigm. Freud : Der Witz S. 134, 135. (Frankfurt 1963)

ولعل هذه المقارنة الطريفة بين الحلم والتجربة الضاحكة تؤكد لنا علاقة النكتة بالاهتمام الروحى الشعبى الذى سبق أن أشرنا اليـــه • فالنكتة مرح ذهنى ، وهى فى الوقت نفسه تخفف من حدة التوتر النفسى لدى القائل والســـامع معا ؛ أى أنها قول مرح فى جـــو مرح • ومع كل هذا فالنكتة تخفى فى ثناياها المشكلات الانسانية بأسرها : ولهذا فكلما كان التلميح فى النكتة قويا ؛ وكلما كانت النكتة أكثر اقترابا من متطلبات الحياة ونواحى اثاراتها ، كانت النكتة أعمق ، وكان أثرها أبقى ••

ان أنواع الفكاهة متعددة كما ذكرنا ؛ ولكن كلمـــا كانت الفكاهة أكثر غنى عن ناحية الفكر وأكثر تعقيدا من ناحية الشكل ، كانت أكثـــر فعاليـــة فى المجتمع • والنكتة تقف فى قمة كل أنـــواع الفكاهة من حيث تعقيدها وعمق فكرتها ، ومن حيث ابرازها لدافعين فطريين فى الانسان هما دافع خلق الشكل ودافع الضحك •